محمد عزيز الحصيني

حنين المفارقات

(1)

هِيَ ذي
كتاباتٌ تمحو كتاباتٍ
وأقوال المرء تذرو عوسج الجراحِ
وترمّمُهُ بين أمشاج حضنٍ نديٍّ
وصرخةٍ يابسة.

هِيَ ذِي
أنهارٌ
تمحو أنهاراً
والوحدةُ للقلبِ.

هِيَ ذِي
أقمارٌ
تجرف أقماراً
والوحدةُ للنزف المتطاير أشعّةً تتطايَرُ في أكفّ رتّقها الكبرياءُ.

هُوذا
الظمأُ الجسُورُ
لِصَحارى تلفح هاجرتُها في العيونِ
وتُنذِرُ بالهَجْمِ الموزّع لُحطيً تتكاثرُ
أضرحةً لاغيةً
وقطافاً مُوَشى بالقلاقِ...
لا غربة للأخلاسِ إن مَرُّوا
ولا غربة تطلع في استيهام الخلائقِ
في نباتاتٍ تطفو على العَصْرِ

هُوَ ذا
عَصْرُ القيلولةِ البطيئة /
الْقرى تدخل فضاءَ الرَّمْلِ
والوردُ يحمل سُؤَالَ المقابرِ
ويواصلُ في الخَفَقَاتِ رَهَقَ الشَّكْوى..

إنَّ سُبلةَ ستُمْطِرُ
وَإنَّ مَضَارِبَ تجدِلُهَا طقوسٌ عَشْماءُ
ستقفر ينابيعُها
وترفُلُ جمراً فجمراً،

هَذَا جَسَدِي

وانا أهجس بالكشفِ عن غمدِ المخاريب ورعبِ الاكوان. هَلْ لِسَبْو جهاتٌ حين يتعمَّدُ بنارِ الدَّغلِ القابرِ ؟ يَا نهرُ من الداخلُ في رعبِ الاكوان ومسيلُ الطَّلَقَاتِ ينحلُ في الروحِ تجاوراً للأحبةِ حين يحكون عن خرابِ الرؤيا وعن خدعةٍ ستأتى في العليقِ والصَّجَرِ المرِّ وذكرى الاسماء الحسنى ؟ ما في الغربةِ سوى هذا الحَجَلِ المارِدِ يطلق أعنَّتَهُ نحو ممالكات البحرِ وليس سوى الطيرِ الأبابيلِ تُدَوِّرُ أسْيِجَةً مِنْ ريشٍ وترقُص في المفاوِزِ،

هُو ورقُ الموت ــ
لكنَّ شعباً سَيَنغَلُّ فِي النَّارِ
وسيرسُفُ التُّرابُ في قسوةِ الأرضِ
وتنمو غلالاتٌ مستغرقةً في التواصلِ
لكنَّ شعباً سَيَعْلُو / سَيَنْهَضُ
بين عرى العَساكِرِ
وصهوةِ النجيلِ العذبِ.. ياورقَ الموتِ.

قُم واحجل على رممٍ من الجمرِ قلتُ. وشمسُ الظَّهائرِ كَانَتْ
ترفو على جانحِ التَّربِ وتترنَّح كَشْمَاءَ على صَمْتِهَا. يا شمسِ الظهائرِ هذا هو نعاسهم.
وهذا كاحلٌ يرسم على المخدَّاتِ شوقاً وَمَغَارِسَ تمتدُ واسعةً على بقاعِ الَّلهِ،
قلبي تفاحةُ لطقوسِ الصحوِ
والعنادلُ فوقها توشي ارتباكَ البصيرةِ،،،
هِيَ ذِي رياحُ وجهي بمداخِلِ المجازاتِ الكسولةِ

والملامحُ تسيل جملًا مهمومة
وأنا أحمي ذُهُولي بِذُهُولٍ شاخصٍ
في دم يتخضَّبُ عظاماً بين خرَاشِيمَ تصطفُّ وتتباهى..
أوَ لَيْسَ النهرُ في ضَيَاعِ القرى ينسابُ تلاشياً
والعصافير في غوغاءِ البلادِ تقبض على النجم الغائرِ في سكرة البروقِ
وتختطُّ بين الوكناتِ سابحاتِها ؟
وَسْنَانةٌ إذن هذه الطحالبُ
حين يُخوِّضها سُمُّ الزَّحفِ الحثيثِ
فترشفُ زَهْوَ القتلى
قلتُ سأطلق وَهْمَ الأصَابع ليبلغ مجد القمصان،
لَكِنْ /
شطَّتْ كوكبةُ الوارثين مرهقَةً في التدفقِ
واستبدَّني مُرَابُونَ
مُلْتَاثُونَ بين أشْتاتِ عشبٍ
وَمَناخِسَ قاطنةٍ في صدغيَّ
وأتوزَّعُها واحداً
واحداً

هَلْ خرج التقاةُ من عروةٍ في رقاع البداوة ؟ :

(يتدفقون مثل زرافاتِ الأحلامِ
وينحدرون في إهابِ الليلِ خطواً
يجثمون على فجرٍ سَبَكَتْهُ الذَّبَائحُ
والعظامُ المتناسِلَةْ...)

مَنْ يحتسي عَرَقَ العُراةِ في الكهوفِ المبهمةِ
فتولي الأهِلَّةُ على بياضِ النقعِ
وتولي احتمالاتُ المنفى على سُرُرٍ يُجلِّلُهَا الورقُ النَّاشفُ ؟
مَنْ يطعنُ كبدَ الأرضِ غير هذا السيفِ المعتصم بالهواء
مَنْ يؤرخ لِمَعْمَعَانِ الأشياء
غير هذا النهر الحائرِ
بين اندفاعَتِه
والغِوَايةْ،

مَنْ يُؤَرِّخُ مَنْ ؟
وماذا عن عارفٍ يُقاطِعُ نَزِيفَهُ بسحر التَّخاذُلِ
أو دَوَرانِ الندى المتساقِطِ..
(..وقد رأيتُ جبالًا تستوحشُ فيها النسورُ
وعلى حضيضها يُولول الحصى..)

مَنْ يَقْتُلُ مَنْ ؟

مرحي بالزنازين المتنقلةِ على ظهور الجمال الكئيبةِ مَرْحَى بالأحبةِ يعتمرون رمل الصحراءِ
وثيابُهم بأبوابِ المدنِ المزاريبِ مِزَقٌ تعفشها فقرياتُ الليلِ وسكونُ الوحشةِ / مَرْحَى
مِزَقٌ تنحني
وسقالاتٌ تروي عطش مَجَامِرَ ليس فيها غير الصهد المؤتلق
يخلع انبجاسَهُ ويفحُّ
جيشانٌ مسجونٌ في الدمقس و الملاءاتِ الصفيقةِ
وشمعٌ مبيضٌ بالصنائع
أردافٌ نافرةٌ
وأكتافٌ بِقِصاعِ ماءٍ وزيتونٍ مُتَيَبِّس —
تكشطها الشَّمْسُ
نساءٌ أخذهن الخطفُ والشهوة
وذراتُ لهجٍ تتنفَّط على الأجسام.
مِزَقٌ تنحني
وسقالاتٌ تنحني
لهذا الضارب في سحنات الأبنيةِ
ولهذا المتأجِّج في طيفِ الأسرار.
سَعَفٌ يهبطُ من عند الخالقِ
وكؤوسٌ تتبرجهُ فِي وحدتها /
يملأها عصفُ زمنٍ يتهادى في الخمائِلِ..
سعفٌ يهبطُ
وأوجاعُ نخلٍ تصرخ في وشي الجريد.
تمرُّ بائدٌ
وهلالٌ يكشف عن آخِرَةِ السماء /
هَلْ تمرُّونَ بِهلالٍ
ولا تبصرونَ ؟

وهل تمشونَ
على ضوءٍ يرتمي زلزلةً على الأقدامِ
ولا تُغفونَ ؟

تلك فتنة القتلِ
وما بيننا سَعِيرُ هذا المدى المعبَّدِ
وما بيننا عصف جائشةٍ
وحوافر خيلٍ
ما بيننا وشايةٌ
ولغةُ خرْقٍ
ما بيننا حبٌّ
وزهرةٌ مشنوقةٌ
والمسافةُ الجامعةُ ما بين صدى النداء وخوفي
تأتي الآن من أفقِ الشمسِ
والآمنون يخرجون من ممَّدِ الحبَالِ
وينسابون مع الشَّدِّ ــ
يَخرُجونَ مِنْ وَمِيضِ المَاءْ.
ثَمَّةَ بلدانٌ يستغرقها النخل وَ
ثَمَّةَ أنهرٌ يغرقها الماءْ
ثَمَّةَ عَوَاميدُ يستهويها النصرُ والنسيانُ وَ
ثَمَّةَ حجارةٌ ترقرق في العيون.
وما بيننا انعزالُ هذا الحريقِ
ونهاياتُ الدخول
في حضرة الخَوْفِ،
ما بيننا استطرادُ الشحوبِ على المدى المُحَاصَرِ
واستسلامُ هذا الطقسِ لطفولةِ اللهب
ما بيننا سَعيرٌ
وفرسخٌ مؤلَّهٌ
وكتابْ.

(2)
جسدٌ ضاربٌ في رماد الفقراء
وعبيدُهُ ينثالون غرثى بين الأعضاءِ صنواً صنواً

ويُغالونَ في استنساخ قبلاتهم على السَّلاسِلِ،
قلتُ أسجاع الرعبِ تنتشر بين القلاع وتحليقِ الطير وتتموَّجُ
صُوَراً من جنون العبارات ومن دوار الأنواء. وقلتُ
سينسابُ جمَاراً نرجس الحقولِ وَيهْطِلُ دماً على مَرْمَرِ المقاصِيرِ
لكنني توقَّفتُ في لَمْحِ الغبارِ وفي وَقْعِ الجسورِ المريبة واكتشفتُ
أني أعقد للميتينَ وَحْيَ الاشاراتِ وللأرضِ أخطاءَ دَمِي.
هاهنا ترقص الغربانُ على وقع سماءٍ بائدة. هاهنا يرحل الوقتُ
إلى البحرِ ويتألق وجهُ الساعةِ مجروحاً بالأسئلة.
والبحرُ يخرج من معركةٍ جميلةٍ يرتوي من عبابِ الصَّخْرِ السَّديميِّ
وينثر وقيعة أصدافه على مَرْمَى السَّواحِلِ يخلع أضلاعَ
السفنِ الآبقةِ ويمضي نحو وَابِلِ الشهوةِ والجزر البعيدةِ
والبحرُ يدفقُ جَسَداً نازفاً بالقناديلِ المشتعلة.
وأنتَ داخلٌ بين أشلاءِ الماءِ وارتعاشِ الرَّدَى مستأنساً
بألقِ البروقِ الجريحةِ هَلَعُكَ الصدى،
والليلُ هاجسٌ
للأباريقِ
وحُبَابِ الأكوابِ
حين تهوي من مصبَّاتِ الحبائلِ
طفولتي المكتهلةْ
والليلُ سَمَرٌ

للأغلالِ والعيونِ المطفأةِ في السَّراديبِ والأكياسِ
المسلَّةِ مع الفجرِ. ها طريقي على انتظارِ يقينٍ اكتوي
بسلاسِلِهِ ينبوعٍ جارفٍ للخطوِ ويفيض على المضائِقِ مصفَّداً
بالغاباتِ والأسماكِ المجهدة،

فاتحاً بوابةَ التواصلِ
وهاتكاً صَوْلَةَ الأقفالِ المدمومةِ
أدخل أرضاً وسيعة

وَأرى أنّي اتخلَّص من أدرانِ الكَلامِ
وبُخاراتِ الذاكرة
وأرى أني أجعل للخوفِ كوابيس تتناقلها الأفضيةُ فأركضُ

ساعياً وراء اشتعال الوحشةِ في مدارج جسدي وأتربَّصُ
بالنَّارنج أجلو مَرَاعِيَ النبتِ الدمويّ وأمتدُّ بين زحمةِ الرَّيِّ وجذورِ
التوابيتِ أقطف من شمم الخلاءِ نزوة الرقص وأطلقُ صُراخي في العراء
رجعاً وصدى ــ ذهبٌ يُصفِّحُني فاتفلّتُ منه وأرفضه ــ وأسمّي الجهاتِ
قطباً للفقرِ وزينةً للفيضانِ والأخبارَ تواريخَ منسيَّةً في ضرعِ غزالةٍ هاربة
والأحلامَ سُرى يجتثُّ قبضاتِ الريح ويسابقُ غيمةَ الجوعِ وأسمّي الشجرَ
سيِّدَ الخلقِ والخطى وجهةَ الموجِ المستوحشِ والفيافي فراغاتٍ للتنويماتِ
المنسابةِ مَعَ الصبحِ عيوناً وخواتم
وأسرجُ النَّهرَ عرشي
وأرسلهُ على كَاهِلِ الحجارةِ لنساءٍ يختبئنَ بفانوسٍ وكتابٍ يتبوَّأنَ لَمَعَانَ
الخرائبِ ويعتصرنَ أكبادَهُنَّ على الطَّمْيِ حين يُغَوِّرُ النَّدَى الشتائيُّ
وأقولُ
لا شاحِبَ إلّا هذه العوالمُ المتصاعدةُ
في اضطرابِ الموتِ
وَ لا مُستَنْفِرَ إلّا هذا البحر.

فتصاعدوا
واسترسلوا خبباً في جيوبِ الكونِ
تَصيلُوا شُجَيْرَةً

وصُرَّةً
وخاتماً مُسمّى

بين السيوفِ

وامتشاقِ الحرابِ.

انه احتمالُ الارضِ والقفرِ
وهل هُوَ انفراطُ النرجسِ على الحصى الواقفِ ــ
هَل هُوَ انتشارُ السُّنبلِ على مَدائنِ الرَّمادِ
حين تتواكبُ الخيلُ النساءُ الرِّحَلُ الشهداءُ الشعراءُ الحمائمُ
فُلول مرايا عريانةٍ
وحين تتساقط الخلايا مُفكَّكَةً
والابراجُ جزراً مَيِّتَةً ؟

: قيل استراحَ الخارجونَ مِنْ جِلْدِ الحجرِ
: وقيل تَعَمَّمُوا في المواسمِ عيراً وولداناً

: وقيل شربوا قهوة همَّهمْ في البراري
نصبوا خيام الفَجيعةِ على مشارفِ البحرِ
ولم يستسلموا لربوعِ الترحالِ
مكرث بهم طواحينُ اليُبسِ
فاستوحشوا
واستيقظوا على الهشاشةِ
فابحروا بسواحلٍ ليس فيها من رُسُلٍ سوى المراكبِ الغارقةْ
وقيل رحلوا مرةً من شمال البلاد
ركضوا ركض الطيرِ
فحاصرتهم القبائلُ
وتوزَّعهم ضوء الصباح.

: وقيل استراحوا
فتَحوا عيونهم على المجاهيلِ
وخرجوا دفعةً مِنْ جُلودِهِمْ
دَخلوا وَحْشَةَ المَاءْ

(3)

وَرْدَةٌ تعبر في جبين الفُقَراءْ /
يحدثُ أن تتراطم الشَّعَائِرُ وتترامى أغطية الزمن المرصود.
يُؤلِّب الحبُّ حجرَ الاحتفالِ وهولَ التَّوُّج يحدث أن يصير البحرُ برائياً والجسدُ يتكوَّرُ في هذيانِ الثلج المتصاعِدِ
من حطام الموانيءِ وجثثِ الغرباءْ
مَنْ لي بفجوةٍ
حتَّى تستيقظَ أيامي
وتتقدمَ الحرائقُ إلى قلبي ؟
كيف تستنهضُ النساءُ خبايا العشقِ
كيف أجهرُ بينهنَّ باعترافي وأقاويلي
كيف أتلفَّظ بجثمان الكلامْ ؟
وهل نورٌ وأصباغٌ هذه الأكفانُ المنطوقةُ
هل سُؤْرٌ هذا الصمتُ في كأسِ المواويل
هل شعثٌ شعثٌ شعثٌ يتوغَّلُ في الحنجرةْ ؟

بيني وبين جسدي هذه الخطوةُ العابرةْ
والمسافاتُ التي تلقي بأيتامِها ــ
استقال سباياها.

بيني وبين دم هذا الأفقِ المحتقن بزرد الشظايا
ضوءُ الخروج من حمأة النزفِ اللانهائي ــ
القماعُ يخبو
وينشر سِمَاطَ الرَّواسِبِ أقواساً على وجنةِ الشمسِ الغاربةْ
ليس الطين يخرج من سخامِ براريها
هو اكتنازا الفصولِ
وثغبُ الطفولةِ
سِرُّ اليبابِ المفتّتِ على الخرائطِ
ورغيفُ المُعْدَمِينَ حين يخرجون من غمدِ المحاريب
ويرابطون في القممِ
محتشداً للحمامِ
أو فارقاً للذكرى...

إلى أين هذا الفارقُ :
خيولٌ تتقاطعُ في شيقِ الرَّمْلِ
وتختم في لوعةِ الممالكِ
صَهْدَ الحمحمة
مَحَاريثُ مُدجَّجةٌ بعرقِ الاختلاطِ
وأنتِ في عزِّ الرؤى الشهيَّةِ عاريةِ المفاصلِ
ضفائرك محلولةٌ على جنباتِ النَّهْرِ
أنتِ نذرُ الأرضِ
وأيامي
أنت أسْمَاءُ الشمسِ في خاصرةِ الثمناتِ والظلِّ
تخرجين الآن من دمي يا وشمةَ الطرقاتِ ويا حلمةَ الريحِ تسرحين في فيضِ الصباحاتِ وتشعلين المراعي صفّاً صفّاً تتعمّدين بالنباتاتِ وتمدّين العشبَ مآدبَ لبغاثِ الطَّيْرِ...جَفْنُكِ ساهرٌ في يقظةِ حواسي وفي عروقي تلمع العتمةُ خيوطَ ضوءٍ ونار تدارين أرقاً محضراً ووجهكِ في الأروقةِ وعلى الطرقاتِ جُميزةٌ ناهدة تلثمين أدرع الجند فيزهر الفولاذُ ياسميناً وتولين على قلبي فيُشمِسُ خفقاً وندى الأمسُكِ فتعقدين أوراقاً تَتطايَرُ كالهذيانِ المنفوش أنقشك على نوافذ الشرفات مطراً أسلحةً على أكتافِ المحاربين أرسمكِ

فتقدَّمين طلقاً وقصفاً على أبهةِ أنبياءِ الوطنِ الموزع أرسلك صحواً ورؤيا فتنزفين في كلِ الأقاليم وصايا دافئةً على تعب الأرضِ البكر تكبرين احتمالاً مباغتاً تتنفسين لغةً ممزوجةً بتضاريس اللحم وطعم الأشجان الحامضة... وَهَا أنا أزرعكِ مع خطواتي بين المطر ونكهة المعارك فتنتشرين خبزاً وماء...

....ولو أني أحمل هذه المجاعةَ الفاجرةَ وأرميها في نطفة الخليقةِ فتفيض جموعاً من النخلِ والصفصافِ وتطلع الخضرة كتابةً على الحوائطِ المخبوءةِ في أعمدةِ الرخامِ الغبيِّ والعبشُ يقتحم فُتُورَ الفواتح لو أني أهتدي لمطافِ الدمع بوهج الأرضِ وشجر الأحبةِ وطير الريح العاصفةِ في فوضى العناصرِ المصلوبةِ لَوْ أنّي....

توقَّف الكلامُ في قبضةِ الوقتِ
وتراقَصَ الرَّمْل
الشَّجَرُ
الفظاعَةُ في أحشاءِ العبارةِ المكنونة
ــ هَذَا مُحْتَشَدي ــ
فَمَنْ يمنحني رعشة الموتِ ناراً
جسداً قابلاً لولوجِ أقبيةِ الجلادينَ
خيامَ الرَّعِيَّة
ورهجَ الحواس
مَنْ يكتبني على زعانفِ المداراتِ
أقواساً
ورمانةً حمراءْ
مَنْ يقدّمني للسَّنَابِلِ
زرعاً وماءْ
فأنا سِحْرُ اليراييع
دمُ الصعاليكِ على الأرصفة
وصحو الوقوفِ على يابسةِ الضحك.

(الرباط : أبريل ــ ماي 1981)